سوريا ولبنان في نظر الغرب

خلاصة لاشهر الكتب الفرنسية

جبلة تحت ظلال الارز — رواد الشرق — في جبل الدروز
على طريق تدمر — اللاجئي ستانبوب في الشرق

١

كانت سوريا ولبنان ، منذ عهدهما الاول ، غاية الفاتحين والتجار والرّواد . وما ان ظهرت المسيحية حتى اصبحا معبراً للحج . فزاد اشتياق عامة الناس اليهما وهرع اليهما جمهور من ابناء الغرب والملوك والامراء والقوّاد والابطال وخصوصاً ابّان الحرب الصليبية ، كريكاردس قلب الاسد وجود فروي دي بويون ورينو دي شاتيون وفردريك بربروسا ولويس ملك فرنسا وجوانفيل وسواهم . ثم زارهما من عهد قريب ، الكتّاب الافذاذ من ابناء فرنسا ، كشاتوبريان ولامارتين وميشو وغليوم ري ورينان ورينه بازان وبيرل بورجيه ولويس برتران وموريس بارس وامثالهم . هؤلاء جميعهم قدموهما في القرن المنصرم والحاضر الى قبيل الحرب العظمى . ثم تلاهم بعيدها ، هنري بوردو ، تصحبهُ كريمتهُ الباسلة ، والاخوان تارو وبيير بنوى وغيرهم كثير . ومن المحال البحث عمن اجتاز سوريا من ملوك وامراء وكتّاب مشهورين فعددهم لا يحصى وتعدادهم متعذر . والروابط التي تربط سوريا بالغرب كثيرة واهمها الدينية والتاريخية وهي التي حملت كثيرين من ابناء الغرب على ارتيادها

وكما يتعذر ان نعرف من اجتاز سوريا من مشهوري الافرنج كذلك يصعب علينا ان نستقصي ما كتبوه عنها . فمن لجج النصرانية كتب الرّواد والزوار المذكرات والرحلات عنها وكفانا استقصاء وعلماً ان فروض الحج كانت لحين الحروب الصليبية تحتّم على الحاج ان يدوّن ما يشاهدهُ في الاراضي المقدسة [1] في رحلتهِ اليها وذلك لاجل بث الدعوة للحج . وقليل عدد الذين ذهبوا ولم يكتبوا شيئاً وانما كان من الفرض عليهم ان يحدثوا القوم بما رأوهُ للسبب عينهِ . وان ما يوجد من المدوّنات في العالم يكفي لان تغصّ به خزائن الكتب العظيمة

Henry Bordeaux—Voyageurs d'Orient—Vol. I
H. Lammens S.J.—La Syrie—Vol. I.

اذن ، فالاستقصاء عما كتب عن سوريا ضرب من العبث واضاعة للوقت سدى وانى للمرء ان يحصي الكاتبين وما كتبوهُ ! . . . لكن يمكننا ان نأتي على ذكر من احسنوا الكتابة عنها في القرنين المنصرم والحاضر . واولهم شاتوبريان فقد نشر كتاب رحلته الشهيرة وهذا اغرى لامرتين عهد الرومانتيزم فاتاها وتنسم الغرب بقصيدته الخالدة « ارز لبنان » التي تناقلتها الالسن وترنمت بها كثيراً . ثم تلاهما ميشو فافاد تاريخ سوريا فائدة جلى وكان الباعث الاول بل الاهم على الاهتمام بعهد الصليبية ذلك العهد الذي هو مع خطورته واثره العظيم في تاريخنا النابر قلما نجد في الشرق من يعيرهُ اقل اهتمام فكأنهُ حادثة بسيطة حدثت وسدلت عنها ستر النسيان . فكتابه وان يكن ينقصهُ بعض القيمة العلمية فهو للآن اجل ما خط في موضوعه . ثم زار سوريا قبل ان تقذف الحرب ويلاتها عليها وعلى العالم كاتب من اعظم كتاب الفرنسيس هو موريس بارس صاحب الكتب الوطنية القيمة فسار فيها طولاً وعرضاً ونقب وبحث وما ان رضع شيطان الحرب سلاحه حتى اظهر كتابهُ الشهير الذي اودعهُ اهم وادق الملاحظات عن سوريا عموماً وبلاد الملوبين خصوصاً وشيخ الجبل ايضاً وقد نال هذا الكتاب صيتاً بعيداً في اوربا جمعاء ثم حازت بعد ذلك روايتهُ التي انشأها عن سوريا ابان الحروب الصليبية شهرة ذائعة وسمى كتابهُ Une Enquête aux Pays du Levant (استقصاء في بلاد الشرق) وروايتهُ Un Jardin sur l'Oronte (حديقة على العاصي)

هؤلاء هم اهمُّ من كتب عن سوريا الى قبيل الحرب وانتشرت كتبهم بين ايدي جمهور القرنين فنشرت صيتاً حسناً للشرق . وما افل نجم الحرب وغاب شبحها المخيف حتى نهد من فرنسا وبرز الى ميدان الشرق كاتب من اكبر كتابها واعزّ روائيها صيتاً واحد اعضاء الاكاديمية الافرنسية فاخترق البحار عام ١٩٢٢ م الى ميناء سوريا وحط رحاله في بيروت. هذا الكاتب هو هنري بوردو لكنهُ لم يأت وحده بل صحبتهُ كريمتهُ الباسلة وما عادا الى الغرب حتى ابرزا عدة كتب هي بالحقيقة اجل وابلغ ما كتب عن بلادنا العزيزة. وان ما قاما به لتعجزعنهُ الفطاحل لما اودعاها من معلومات قيمة ولا يغرب عن البال انهما اقاما في سوريا مدة قصيرة جداً فلذا يذكر لهما ما اتياهُ مقترناً بالشكر

طالما قرأنا كتباً كثيرة عن سوريا ولبنان ولكننا لا نذكر اننا عثرنا في طريقنا على ما تؤثرهُ على كتب المسيو بوردو وكريمته او نضاهيهِ بها ولذا وددنا ان نأتي بكلمة عنها وآثرنا التحدث بها وكلنا امل ان نرى من القراء الكرام حسن الالتفات والعناية

بامثال هذه الكتب المفيدة العظيمة وقدرها حق قدرها وعسانا ان نصيب الهدف ، بما نبسطهُ ، وان لنا في نية الاخلاص عذراً »

HENRY BORDEAUX

هنري بوردو

في ربيع عام ١٩٢٢ م ، استقبلت سوريا ، احد اعاظم كتاب فرنسا . وطيء الشاطىء ، وقد أُخذ وهو في عرض البحر بمنظر صنين الشيخ ، المكلل بالبياض ، المتوّج بالثلج . تطع سوريا عرضاً وطولاً فلم يترك فيها موضعاً يستزار . ثم عاد الى بلادهِ العزيزة يحمل لسوريا ، اجمل التذكارات ، واطيب الثناء . وما لبث ان نفحنا ، باول كتاب هو رواية جميلة الخالدة . ثم بثانٍ عن رواد الشرق ، ثم بآخر عن جبل الدروز ، وبث في كتابه الاخير فينا الامل بقرب ظهور كتاب آخر ، يبسط فيهِ رحلتهُ بعد ان يضمنهُ أوفر المعلومات ، ليأتي كتاباً حاوياً لادق التفاصيل ، واعم الفوائد ، فعسى ان نرى عاجلاً هذا الكتاب فيملأ ما تبقى من فراغ ، ويسد ما لا يزال من ثلم . وهلمَّ بنا الآن ، ولنتناول كتبهُ

***

جميلة في ظلال الارز Yamilé sous les Cédres : هذه الرواية الخالدة — اجل خالدة ! — هي اول ما اطرفتنا بهِ قريحة بوردو عن سوريا ، بعد رجوعهِ منها . فهي ثمرتهُ الاولى . هي تلك الثمرة التي صوَّر بها ، الحياة اللبنانية القديمة الصحيحة . صورة حية لا غشاء عليها . هي خالية من عمل الخيال وليس بها رائحة التكلف . واغلب ظننا ان المسيو بوردو هو الوحيد بين الفرنسيين ، الذين أستطاعوا ان يصوروا ويرسموا تلك الحياة بذات الوانها المبهجة والكئيبة . . . دعاها Yamilé . واستاض بها عن جميلة . ليخفف وقعها على الآذان ، اذ لا يخفى علينا ان من اهم دعائم الادب الفرنسي : موسيقى الالفاظ

ان روايتهُ هذه ، فاقت جميع ما كتب من روايات بالفرنسية ، عن بلادنا ، فاميرة بيير بنوى (Pierre Benoit : La Châtelaine du Liban) هي ابعد كثير عن ان تبني الحياة اللبنانية الحديثة ، حقها . وجميلة بوردو ، تفوقها كثيراً ، بما تظهرهُ من عادات واخلاق لبنانية كما هي على فطرتها . في حين ان تلك لا تظهر سوى ما يعد في كثير من الاحايين عن الحقيقة . فهي وان كانت تعد من احسن ما كتب من روايات لبنانية ، الا انها لا تقارب « جميلة » على كل حال

موضوع الرواية ، ليس الاول من نوعهِ . ولكنهُ اكبر عظة ، واشد عبرة ... فتاة

مارونية تشق فتى كريماً مسلماً. فالفرار، فالمطاردة .... فمأساة !! حدثت هذه الرواية بعد حوادث جرت فيها الدماء انهارا، ولذا كانت نتيجتها مؤلمة محزنة ! حدثت بعد مجازر ١٨٦٠ المؤلمة ولم تكن حوادثها قد غابت عن الاذهان، ولا تزال رائحة الدماء تملأ الجو. لذا كان العقاب حتما صارماً. وكانت الخاتمة فاجعة !

تحامل كثيرون على بوردو وروايته، وزعموا — اوزعمهم باطل — انها تظهر اللبنانيين بغير مظهرهم الحقيقي وانها تبعث التعصب الذميم. ولكنهم لو فكروا لحظة. ونظروا الى الخلف نظرة، لعلموا ان بها لنا عبرة وذكرى تمنعنا عن التعصب، وان ما جاء بها لا يخرج عما كان يحدث في غابر الاجيال. غير ان هذه اكبرها عظة وامرّها نتيجة. وذلك لقربها من عهد الدماء ! ومما يؤلمنا، ويمز علينا ان اسعد داغر، احد مترجميها (ولعلها ترجمت مرة اخرى. واغا فاتنا الاطلاع عليها) قد قال في مقدمته لها انهُ (اي المترجم) «جنح الى اغفال فكرة، تمثلها صارة في مجتمعه، أو مخالفة لمصلحة قومه». وهذا مما لا يحسن باديب — فضلا عن كاتب معروف — ان ينهجهُ، اذا ترجم شيئاً. فما يشين المرء ان يحذف امراً، توخاهُ وقصدهُ الكاتب. وان للترجمة آداباً لا يجب ان تغفل قط. ومن الواجب المحتم على المرء ان يترجم ويظهر كل فكرة المؤلف، واما ان يرفع يدهُ عنها. ولهُ الخيار قبل البدء، وهذا ما كنا نودّ من معربها الفاضل ولعلهُ يتدارك ذلك في طبعة تالية

قرأت هذه الرواية اولاً بالعربية. ومع اني لست من عشاق الروايات. فقد شاقتني جداً، اذ هي نعم الصورة، لحياة لبنان. ثم قرأتها بالافرنسية مني وثلاث، ولا ازال اعلل النفس بقراءتها، عند سنوح الفرص

ومما يذكر لبوردو بالشكر، انهُ أتى للشرق خالي البال من مآرب في تأليف قصة. ولكن اراد حسن الحظ، ان تصادفهُ هذه القصة الحقيقية. فرواها كما يلتهُ على علاتها. كما فعل في روايته «(البيت الثالث) (وخيال شارع ميكلانجلو). فهي تاريخ حقيقي، وليس هو مخترع لها»

من عرض البحر والباخرة تمخر العباب تقترب من بيروت، اضطربت عيناهُ، اذ وقعتا على أجمل منظر حواهُ لبنان. الثلج يتوّج هامة قمة الشماء. تساءل عنهُ، فكان الجواب انهُ قمة صنين «التي يمكن الوصول اليها بطريق طرابلس والارز». اخذ المنظر بمجامع قلبه — ومثل بوردو من يقدر الجمال، فهو من الساقوى واحد عشاق جبال الالب الشهيرة، ووديانها المتينين. فاذا ما اتى على لبنان الشيخ المجلل بالبياض، علمنا اي قيمة

اعطاها لهُ — عزم على الذهاب اليهِ . فاستقل السيارة الى بشري . حيث نزل ضيفاً كريماً على احدى عائلاتها الكريمة . وهناك تقدم اليهِ احد ابطال الرواية ، خليل الخوري (كما دعاهُ) يأخذهُ الى الارز

في اليوم التالي صعدا الى الارز . وهناك تحت اشجاره ، المقدسة بالقرب من وادي القديسين ، سقط خليل على الارض وانتحب .. ما بال الرجل ينتحب ؟ بكى اذ تذكر حبيبتهُ جميلة التي رآها لآخر مرة ، وهي صريعة تسبح في دمها الزكي ، منذ نصف قرن . سألهُ بوردو عن سبب انتحابهِ ولوعته .... وكان الجواب .. هذه القصة المحزنة ! .. روى لهُ عشقهُ في صباهُ فتاة ، هي البدر بتمامهِ ، جميلة ابنة رشيد رحمة احد اشراف بشري وسراتها . خطبها من ابيها . وربما الحب نمو وبغزو قلبيهما اذ بالدهر الخؤون ، يسل على الكيد ، ويصب بوارق غضبهِ ....ذهبوا جماعة الى الارز . ورقصت جميلة تحت ظلاله لوارفة وهناك لاول مرة ، وقع نظرها على عمر بك الحسين ، بطل حياتها وموتها . وكان قد اتى الى الارز ، وبصحبتهِ احد اصدقائهِ عبد الرازق بك العثمان . تلاقى النظران ، فخفق القلبان :

علق القلب بها لما رنت اي قلب ، يا هوى ما علقا ؟
وتصباها ، فاستست صبةً وتصبتهُ ، فأمسى شيقا !

لاحظ ذلك خليل فأحسَّ بما وراء الاكمة وعلم بما يطويه الزمان الغادر من مصائب قلوب العاشقين ، لها عيون ترى ما لا يراه الناظرون !

اظهر ذلك لبطرس ، شقيق جميلة ، فتحرش بفرسان المسلمين . ولكن لم ينجح . فتصارع الفريقان . ثم سافر اشراف عكار الى بلادهم ولكن ما هي الا ايام قلائل حتى عادوا وفي صحبتهم فرس وعد بها عمر رشيداً في الارز واذا بالبيت مقفر من جميلة والفرسان المسلمين . ها قد هربت الفتاة الناعسة ! دوى الصوت والعويل ! اجتمع خوري القرية برشيد رحمة وبعض قرباه وقرروا احضار جميلة حية او مصروعة واتدبوا للمهمة بطرس وخليلا فامتطيا جواديهما ، وتسلحا بندقيتهما ، وطارا لتنفيذ الحكم العادل الصارم ! ويح العاشق المسكين ! ويحهُ ! انتدب لينفذ العدالة في شقيقة الفؤاد ! وصلا شرار ونزلا على احد موارتها . وهناك علما ان عمر سيتخذ جميلة زوجة لهُ . كنا لها واستمدا . ولكن حين مرَّت ارتخت يد العاشق المسكين . يالهُ من عاشق تعس ! هكذا زفت جميلة الى عمر ورجعا (بطرس وخليل) الى بشري والفشل في ركابهما . ولكنهما بعد مضي شهور ، بعد موت والدة جميلة التي ماتت قهراً طارا الى طرابلس حيث مسكن عمر والعدالة بين ايديهما وهناك احتالا على جميلة فاخرجتها الخادمة المغرورة الى المقبرة بجوار القلعة عشية

يوم لم يكن عمر فيه في طرابلس. وهناك هبا عليها وقبض بطرس شقيقها عليها . أما العاشق البائس فتردد واخيراً حملاها الى بشري. وهنا تبتدئ الفاجعة. التفت المحكمة العائلية فسئلت فلم تجب لأن عمراً ملأ فراغ قلبها ، فلم يعد فيه مكان للاجابة . ايتها الحسناء أما من جواب ؟ . . . صدر الحكم باعدامها . وسلم تنفيذه لبطرس . حاول الخليل انقاذها بالتي والتيا . كذب على القضاة الثناء ولكنها اشارت بكذبه . فعرض ان يتزوجها وحاول ان يهديها سواء السبيل فاتحى بها غرفة اراها ما يكنُّ قلبهُ لها من الحب والاخلاص ، حاول عبثاً ردّها ولكنها كانت عنيدة فرددت له انها لا تهوى غير عمر فهي لعمر وهو لها. خرجت من الغرفة واوصد عليه الباب وترك يملأ فضاءها بصراخه . حاول تحطيم الباب وهيهات ! استغاث وليس من مجيب . بعد زمن فتحت منتهى — شقيقة جميلة — الباب تخرج منهُ كقنبلة قذفها مدفع ضخم سائلا اباها عن اختها : . . . في الارز ! . . هذا هو الجواب

حمل بندقيتهُ عازماً على قتال جلاديها . ولكن فات الاوان ! واذ بالجلادين قادمان من الارز . لقد نفذ الحكم وانتهى تمثيل الفاجعة ! هب يسابق الرياح سقط وقام وتعثر ولا يزال للامل بقية في فؤاده المسحق رحمة له ! وصل الى الارز حيث الفاجعة الاولى قد مثلت هناك وتحت ظلال القدسية الذكية سقطت جميلة قتيلة الرصاص كما سقط قبلها تحتهُ قبلا قتيل الحب والغرام ! نظر خليل الى جثتها الطاهرة فاذا عمر قد وصل ايضاً بعد فوات الاوان . اراد خليل ان يردي من سلبهُ حبيبتهُ اولاً ثم سلبهُ آخر نظرة اليها . ولكن يده ارتجفت ايضاً كما ارتجفت قبلا في شرارتين صوب بندقيتهُ الى صدر الحبيب !

هذا ما رواه خليل للسير بوردو . وهما تحت الارز ثم ذهبا معاً الى منتهى شقيقة جميلة وهناك اظهر خليل ان قتل جميلة كان جوراً وظلماً ولكن منتهى اصرّت انهُ كان في منتهى العدل والحق !

هذا ما يعرفهُ خليل ، ولكن بوردو توصل لمعرفة اكثر من ذلك . توصل لمعرفة الخاتمة المفجعة . فقد عاد الى طرابلس ، وهناك قابل رفيق عمر ، عبد الرزاق بك العثمان وكان لا يزال حيًّا يرزق — وسألهُ عن حبيب جميلة . فأخبرهُ انهُ حاول بعد رجوعه بجميلة من الارز ، وهي جثة هامدة ، ان يثير المسلمين ، على الموارنة ، ولكن العقلاء الكرام رفضوا ذلك ولما خاب رجاؤهُ بالانتقام ذهب الى قبر جميلة في سفح القلعة وعمد حنجره في فؤاده فانفجرت الدماء على قبر الحبيبة وبل ثراها فدفنوه معها . . . وهذه هي الفاجعة الثانية . . .

اسدل الستار وانتهت المأساة ! !

السودان ميشيل سليم كيد